الطب الشعبي والطب العلمي
دراسة وصفية تحليلية

د.عبد الفتاح محمد المشهداني*

تاريخ استلام البحث ٢٠١١/٤/٢٨ **تاريخ قبول النشر** ٢٠١١/٨/٤

الملخص:

ان الاهتمام بدراسة الطب الشعبي، ليس مجرد قضية علمية تستحق الاهتمام لكنه ايضاً قضية مجتمعية تستحق التوقف عندها، لانها اصبحت محط اهتمام العديد من المجتمعات والثقافات.

لقد اثبتت الدراسات الحديثة في الطب الشعبي ان الصراع بينه وبين الطب الحديث، هو صراع متصل لم يتوقف بالرغم من الانجازات العلمية في مجال الطب العلمي الحديث. فالطب العلمي الحديث ينظر الى المرض على انه نتيجة لبعض الاسباب الفسيولوجية او بفعل عوامل خارجية مثل الجراثيم والميكروبات. بينما الطب الشعبي يرجع اسباب المرض الى عوامل اخرى، فهو ينظر الى جسم الانسان على انه وحدة متكاملة لامجال للفصل بين عضو وآخر، لكن الطب الحديث يفصل بين اعضاء جسم الانسان من خلال التطور العلمي والتخصصات العلمية المتنوعة، فأصبح لكل عضو من اعضاء جسم الانسان طبيباً خاصاً فهو يهتم بعلاج المرض اكثر من اهتمامه بعلاج المريض.

تضمن البحث ثلاث مباحث اساسية، تناول المبحث الاول الجذور التاريخية للطب الشعبي، اما المبحث الثاني فانه يتحدث عن الصلات بين الطب الشعبي والطب العلمي، وركز المبحث الثالث على مستقبل الطب الشعبي في مواجهة التطور الهائل للطب الحديث اضافة الى مقدمة، واهمية واهداف البحث التي تحاول تشخيص طبيعة العلاقة بين الطب الشعبي والطب العلمي، وهل هي علاقة تضاد وتنافر ام علاقة تقارب وتكامل؟

* أستاذ مساعد/ قسم علم الاجتماع/ كلية الآداب

Folk Medicine And Scientifical Medicine Described Analitical Study

Abstract:

The concern of studing Folk medicine is not more ascientifical matter deserves ones to interest, but also it is societal matter need from us to stop on it ,because it becomes asubject concerning with societies and cultures. The recent studies in the field of folk medicine have been shown that the conflict between Folk medicine and scientific medicine is still continuous ,inspite of the progress and scientifical achievements in the field of medicine.The modern medicine look at disease as a result of physical and pathological causes.or under the effect of some bacterias and microbes. while,the factors of disease according to folk medicine is due to the other factors and look at the human body as acomplete unit not possible to separate from one part to others, while the scientific medicine study the human body through scientifical and technical specialization and the doctors take into consideration the diseases more them the patients.The research contained the diseases,the first one try to search in the historian roots of folk medicine, but the chapter two study the corolation between the folk medicine and scientific medicine,whisper the third chapter concentrate on the future of folk medicine in facing the huge development in the field of modern medicine. The research also try to threw some questions about the natural of relations between folk medicine and scientific medicine,wheather such relation is negative or positives.

مـــقدمـــة

أخذ الإنسان في القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين يعاني من آثار الحضارة المادية معاناة شديدة على مختلف الأصعدة سواء كانت مادية أم نفسية أم اجتماعية أم سياسية، ومن ضمن هذه المعاناة الصحية **(Health)**، والتي نتجت عن دخول التقانات الكيمياوية والإشعاعية والهرمونية في الطعـــام

والشراب بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية فبدأت المشاكل الصحية والمرضية تزداد يوماً بعد آخر .

لهذا نجد ان أكثر الدول استخداماً لطب الأعشاب (**Herbal Medicine**) هي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا واسبانيا، أما اقلها فهي الولايات المتحدة الأمريكية التي لاتمتلك تراثاً شعبياً وعلمياً في هذا المجال كباقي دول العالم، ومع ذلك فقد بدأت العديد من الجامعات الأمريكية تدريس مادة الطب البديل في مقرراتها.

ان الطب الشعبي **(Folk Medicine)**، عبارة عن مجموعة طرق وأنظمة علاج قديمة متوارثة لدى الشعوب عمرها يرجع إلى مئات السنين وأخرى أبتكرها علماء مختصون.فالعلاج والتشخيص يختلف من ثقافة إلى أخرى. على عكس الطب التقليدي الذي ينظر الى المرض على أنه نتيجة لبعض الأسباب الفسيولوجية –الباثولوجية كأن تكون سبباً ذاتياً داخل الشخص أو بعض عوامل خارجية مثل الجراثيم والميكروبات، ويتمثل علاجها بالشمولية، أي النظر إلى الإنسان المريض ككل واحد في أي مكان.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة في الطب الشعبي ان الصراع بينه وبين الطب الحديث صراع متواصل، على الرغم من المنجزات العلمية والتكنلوجية التي يحققها الطب الحديث، فهناك مشتركات بين الطب الشعبي والطب العلمي.

لقد أشارت منظمة الصحة العالمية **(WHO)** الى ان **٦٥%-٨٠%** من سكان العالم يعتمدون على الطب البديل شكلاً أساسياً للرعاية الصحية.وهناك من يرى أن الطب البديل هو طب المستقبل بينما يرى آخرون أنه ليس طباً، وبالتالي لايصلح أن يكون بديلا وان المسألة لاتعدو كونها خلطاً للأوراق.

بين وجهة النظر هذه وتلك يقف البحث ليسلط الضوء على الطب العلمي والطب الشعبي والمسافات التي تفصل بينهما والحدود التي تجمعهما معاً، وهل أن للطب الشعبي أو الطب البديل مستقبلاً سيشهد تقدماً أم تراجعاً أم إقبالاً عالمياً؟

تضمن البحث ثلاث مباحث أساسية، تحدث المبحث الثاني عن الجذور التاريخية للطب الشعبي، وتناول المبحث الثالث الصلات بين الطب الشعبي والطب العلمي، بينما ركز المبحث الرابع على مستقبل الطب الشعبي في خضم التقدم الهائل لتكنلوجيا الطب، فضلاً عن مقدمة البحث وأهميته وأهدافه.

المبحث الأول

أولاً :أهـــمية البـــحـــث

ان الاهتمام بدراسة الطب الشعبي ليس مجرد قضية علمية تستحق العناية وتستحق مايبذل فيها من جهد فحسب، ولكنه أيضاً قـضية مجتمعيـة تـستحق التوقف عندها ولفت النظر اليها، فقد أثبتت الدراسـات الحديثـة فـي الطـب الشعبي **(Folk Medicine)**، ان الصراع بينه وبين الطب الحديث هو صراع متصل ولم يتوقف على الرغم من كل المنجزات العلمية التي حققهـا ومـازال يحققها الطب الحديث.

لذا فإن الطب الشعبي أحدث دوياً كبيراً في كل المجتمعات وفـي مختلـف الأوساط والثقافات في السنوات الأخيرة، وأصبح الكثير من المرضى يفـضلون الطب الشعبي على الطب العلمي الحديث، وهذا يرجع إلى اهتمـام المجتمعـات بنظمهم الاجتماعية والطبية القديمة مرة أخرى والتي يشكل الطب الشعبي أهـم مقوماتها، وكذلك يعود إلى الآثار الجانبية التي يتركها الطب الحديث، وخـوف الناس من هذه الآثار الأمر الذي أقلق المرضى بوجه خاص والناس عامة. كما ان فشل الناس في الحصول على العلاج المطلوب لأمراضهم من خلال الطـب الحديث جعلهم يبحثون عن أشكال بديلة للعلاج.

فالواقع العلمي يبين أن الكثير من أفكار الطب الـشعبي توجـد فـي كـل المجتمعات كما أن ممارسة الطب الشعبي لم يكن مقصوراً على الفئـات الأقـل تعليماً في المجتمع، وإنما يشمل فئات اجتماعية متعلمة وذات مـستويات ماديـة وثقافية جيدة.

ثانـــيا: أهـــداف البـــحـــث

يهدف البحث إلى تشخيص وتمحيص الآتي:-

١. الاهتمام بدراسة الطب الشعبي وعلاقته بالطب الرسمي.

٢. ماطبيعة هذه العلاقة؟ وهل هي علاقة تـضاد وتنـافر، أم علاقـة تقـارب وتكامل؟

ثالثاً: مفاهيم البحث

١. الطب الشعبي (Folk Medicine)

مجموعة من المعتقدات الشعبية والممارسات العلاجية التي اسـتخدمت منذ أزمان بعيدة في كل الثقافات القديمة لمعالجة الأمراض بواسطة مجموعـة من الأشخاص ممن يعتقدون أنهم يملكون القدرة على معالجة الناس، ويعد نظاماً غير رسمي في البناء الصحي، على الرغم من انه قد يتم تدريب المختصين فيه في مراكز تدريب مهنية رسمية، ويمارس بواسطة ممارسين طبيين من خـارج

المؤسسات الطبية الرسمية، وتكون وسائله العلاجية إما وسائل جيدة مستمدة من موروثات سامية قديمة، أو قد تكون وسائل علاجية رديئة كالتي تعالج بها المجتمعات البدائية نفسها، بدلاً من العناية الطبية المدربة.تنظر منظمة الصحة العالمية **(WHO)** الى الطب الشعبي على انه شكل من أشكال الطب التقليدي، وتعرفه انه يشير إلى الطرق والوسائل التي وجدت قبل ظهور الطب العلمي الحديث(١). أما الجمعية الطبية الأمريكية **(American Medical Socity)** فقد عرفت الطب الشعبي على انه مصطلح كثيراً مايستخدم في المراجع العلمية بالتبادل مع مصطلح الطب البديل **(Alternative Medicine)*** ومصطلح الطب المكمل(٢). يحفظ الطب الشعبي بين الشعوب البدائية ويتناقل بالتراث الشفهي، بوصفه جزءاً من التقاليد الاجتماعية والأدب الشعبي، ومن أنواعه الرقية، والتعاويذ، الكمادات، والحجامة، واستعمال دودة العلق، والكي، والتدليك، كما عرفت الجراحة منذ آلاف السنين وتقتصر على التجبير، وتتكون الأدوية المحلية في الأغلب، من أشربة ومراهم محضرة من الأعشاب والبذور(٣).

٢. الطب العلمي (The Scientific Medicine)

الطب الذي يستند على أسس علمية وتقنية في علاج المرض، وهو حصيلة التقدم العلمي، ويجتاز الطبيب خلال عملية التعليم الطبي مرحلة تعليمية وتثقيفية يكتسب بواسطتها وجهة النظر بالنسبة للمرض، ويعتمد في فروضه على العقلانية العلمية ان الطب الحديث موجه بالدرجة الأولى نحو استنتاج وقياس المعلومات الكيميائية والفيزيائية عن المريض بدلاً من العوامل الوجدانية والاجتماعية، وهو رديف العلوم الطبيعية الأخرى كالفيزياء والكيمياء والبيولوجي والتكنولوجي، ويتطور بتطورها.

المبحث الثاني: جذور الطب الشعبي

يعد الطب الشعبي **(Folk Medicine)** فرعاً من فروع الانثروبولوجيا الطبية **(Medical Anthropology)** وهو وليد الاهتمام من جانب الانثروبولوجيين بالأنساق التقليدية للشعوب غير الغربية، وقد أعطى

(*)- يميل الباحث الى تفضيل استخدام مفهوم"الطب المكمل" على استخدام"الطب البديل" لأن الطب الشعبي لايمثل بديلاً عن الطب العلمي.

(1)- نجلاء عاطف خليل، في علم الاجتماع الطبي ثقافة الصحة والمرض، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٢٦٠-٢٦١

(2)- المصدر نفسه، ص٢٦١.

(٣)-شاكر مصطفى سليم، قاموس الانثروبولوجيا، الكويت، ص١، ١٩٨١، ص٦١٧.

علماء الأنثروبولوجيا أسماً رسمياً للطب الشعبي وجعلوه جزءاً من تخصصهم ومعظم مقالاتهم تتناول جماعات مثل النافاهو، والاباش، والسوليتك، والبيلاجا في أمريكا وهنود غواتيمالا وغيرهم من المجتمعات القبلية البدائية[١].

عرف علماء الأنثروبولوجيا الطب الشعبي التقليدي على أنه (تلك المعتقدات والممارسات المرتبطة بالمرض، والتي تنتج عن تطور التشخيص الثقافي البعيد عن الإطار التصوري للطب الحديث[٢].

والطب الشعبي له مسميات متعددة في الدراسات، فالبعض يطلق عليه الطب الفلكلوري أو الطب الشعبي أو الثقافة الصحية الشعبية، والطب البدائي أو الطب التقليدي، والطب العرفي أي طب السلالات، والبعض يميز بين الطب البدائي بوصف يعتمد على الممارسات السحرية والقوى فوق الطبيعية لممارسة العلاج وبين الطب الشعبي الذي يشير إلى أنه معتقدات و ممارسات طبية تنتشر بين الناس، وقد ميز بعض العلماء بين نوعين من فروع الطب الشعبي، الفرع الأول الطب الشعبي الطبيعي **(Natural Folk Medicine)** ويسمى بالطب الشعبي النباتي أو العشبي **(Herbal Folk)** والتي يلجأ فيها الإنسان إلى استخدام الأعشاب والنباتات والمعادن في علاج أمراضه، أما الفرع الثاني فهو الطب الشعبي الديني السحري**(Magic-Religious)** أو مايعرف أحياناً بالطب الغامض أو النظرة ماقبل العلمية Pre-Scientific [٣].وتعرفه إحدى الباحثات المصريات بأنه نوع من المأثورات الشعبية الذي يعتمد على تراكم خبرات متوارثة يتداولها الناس بالملاحظة والتقليد، ويضم الأمراض التي تحدث بفعل العين والحسد، والقوى غير المنظورة، وكيفية التخلص منها، وهو فرع من فروع العادات والمعتقدات، وهو شكل من أشكال التفكير الفلكلوري وهو بقايا انتقلت مع الإنسان من البدائية الى الحضارة واستمرت عبر الزمن[٤].

كان الطب الشعبي الوسيلة الوحيدة للتداوي في الماضي فعندما يمرض الناس لايزورون الطبيب ويعالجون أنفسهم بأنماط من العلاج تعلموها واكتسبوها من والديهم أو أجدادهم.

يؤكد د. محمد الجوهري أن هناك مجموعة من المعارف الشعبية تدور حول جسم الانسان واجزائه، وهي جزء من المعتقدات الشعبية التي تشمل السحر والأولياء والأحلام والكائنات الطبيعية[٥]. وأكدت دراسة انثروبولوجية عن الطب الشعبي في الريف العربي على ان الطب الشعبي جزء من المعارف الشعبية التي تكونت عبر أزمنة طويلة واستمرت بسبب ارتباطها بالطبيعة وبظروف اجتماعية، وهو نوع من التداوي يقوم به محترفين أو غير محترفين يستخدمون النباتات وبعضاً من أجزاء الحيوانات والدهانات [٦].

كانت البدايات الأولى للطب الشعبي هي تلك المحاولات البدائية التي تمثلت في أستخدام بعض الطرق البسيطة التي توصل اليها الناس عن طريق التجربة والخطأ للوقاية من الأمراض والتغلب عليها، وعلى الرغم من التقدم الهائل الذي حدث في مجال الطب، فإن الطرق البدائية مازالت تتعايش جنباً الى جنب مع هذه الوسائل الحديثة، وتأخذ بالطرق الشعبية في العلاج(٧).

ان الطب البدائي يعد المصدر الأول للطب الشعبي والذي كان يعتمد أساساً على الدين والسحر كما كان يتضمن أيضاً أستخداماً للأعشاب الطبية والمنتجات المعدنية وان كل الأمراض كانت تعالج بواسطة(الشامان) الكاهن أو الطبيب الساحر أو بواسطة بعض الممارسين الشعبيين الآخرين الذين لديهم القدرة على طرد الأرواح الشريرة (٨).لذا يرى الباحثون ان الطب البدائي هو طب سحري ويؤكد **(جيمس دافيز James Davis)**، أن التطبيب والدين ارتبطا معاً، وعندما عزا الفرد الأمراض للأرواح كان السحر هو الشكل المناسب لضبطها والتحكم فيها، سيطر هذا الاتجاه على المدنية الغربية إلى ان اوجد اليونانيون التفسير الطبيعي للأمراض(٩).وتوضح الدراسات الحديثة ان أصول الطب القديم ترجع إلى معلومات دينية وطب وخرافات امتزجت معاً وكونت الطب البدائي الذي مالبث أن تفرع إلى ثلاث شعب هي الطب الروحاني، والطب الديني، والطب الحقيقي، وهذا يؤكد ان المعرفة الطبية الشعبية كانت منتشرة بدرجة كبيرة بين الحضارات القديمة خاصة في مصر الفرعونية، ثم تتابعت مراحل تطورها خلال النهضة الإغريقية (١٠). وخلال الفتوحات الإسلامية لمصر وبلاد مابين النهرين وبلاد فارس، تأسست المدرسة الطبية الإسلامية في المشرق في أواخر القرن التاسع وحتى منتصف القرن الثالث عشر والتي اشتهرت بأسماء علماء أمثال الرازي وابن سينا وابن النفيس والانطاكي وتبعتها المدرسة الإسلامية في بلاد المغرب من أمثال الزهراوي وابن زهر وابن رشد، وازداد الطب العربي الإسلامي ازدهاراً أيام العباسيين وأيام الحضارة العربية في الأندلس، ومن السمات الواضحة في الطب الإسلامي تحرره من مفاهيم السحر والجان وسيادة الجانب الروحي على ممارساته واحتوائه على جوانب شعبية وأخرى علمية (١١).

وفي بداية القرن التاسع عشر ومع ازدهار علم الكيمياء اصبح باستطاعته تحليل الأعشاب ومعرفة المواد الفعالة فيها واستخراجها او معرفة تركيبها الكيمياوي، وبهذا الانجاز العلمي، انتقل التداوي من الأعشاب مباشرة إلى التداوي بالمساحيق والأقراص والاشربة المستخلصة من الأجزاء الفعالة من الأعشاب، ومن المواد الكيمياوية غير العضوية (١٢). بعد ذلك مر الطب

بمراحل وحقب كما نوهنا سابقاً، حيث تلون في إحدى مراحله بالسحر والشعوذة والطقوس العقائدية المختلفة، حتى وصل عبر مراحل التفكير الانساني الى ماهو عليه اليوم بالزي المعاصر للطب الشعبي [١٣].

يوجد الطب الشعبي حالياً في جميع المجتمعات الحديثة، كما يعد المصدر الأساس لأفكار وقيم الطب البديل(**Alternative Medicine**) وهو يتشكل من كل المعتقدات الصحية العامية وغير الرسمية الموجودة في كل المجتمعات، وأنه يرتبط بالأفراد داخل مجموعات عرقية معينة، فهناك مجموعات كبيرة من العلاجات الشعبية تنتشر بشكل واسع في معظم المجتمعات منها الوخز بالابر الصينية، والعلاجات الطبيعية، وكذلك الممارسات والمعتقدات الدينية، وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة للطب الشعبي، فان أكثره يعد طباً غامضاً وغير مدرك بالنسبة للذين يعارضونه، وغالباً ماينظر الى الطب الشعبي على ان استخدامه مقصور على الفقراء وغير المتعلمين، غير ان حقيقة الأمر هي ان معظم الناس يستخدمون شكلاً من أشكال الطب الشعبي والذي يسمى بالعلاج المنزلي[١٤].

المبحث الثالث: بين الطب الشعبي والطب العلمي

تركز المعتقدات والممارسات الطبية والشعبية لدى جميع الشعوب وفي كل العصور على معتقد أساسي يرى أن الله خلق لكل داء دواء وعلى الإنسان ان يسلك الطريق السليم للبحث عن هذا الدواء، ولاتختلف أقدم الشعوب البدائية مع الطبقات الشعبية في أي مجتمع حديث في هذا الأمر لأن الممارسة الطبية الشعبية كانت ترتكز في جانب كبير منها على المحاولة والخطأ فقد كان من الطبيعي أن تتزايد درجة إتقان الشعب لطرق العلاج الشعبي على مدار العصور، وتؤكد فلوكين(**Flogen**)ان تاريخ الطب الشعبي في العالم ليس إلا تاريخ الطب نفسه[١٥].

لما كان الطب الشعبي يمثل أحد جوانب القيم والمعرفة الثقافية فانه ينظر إليه على انه نظام علاجي يُبنى على أشكال وأساليب تقليدية من الممارسات والاعمال التي تقاوم المرض، ويختلف الطب الشعبي عن كثير من المعتقدات الشعبية فهو لايندرج كله تحت الأشكال الوهمية، كما انه ليس فكراً خرافياً أو غيبياً، فليس من المتوقع أن يختفي اختفاءً كلياً في المجتمعات التي تأخذ بأساليب العلم الحديث، وذلك لأنه يتضمن في بعض جوانبه خبرة شعبية متوارثة صقلتها المحاولة والخطأ وينتقل من جيل إلى جيل من خلال المشافهة[١٦].والطب الشعبي جزء من التراث الشعبي الذي يعد من أهم المعطيات الثقافية التي تحدد هوية الإنسان ماضيه وحاضره وتخطط

لمستقبله[١٧]. إذ أن معتقدات وممارسات الطب الشعبي تمثل نظاماً معرفياً لأسباب المرض واتخاذ قرار بشأن العلاج، فهناك عادات وتقاليد طبية وشعبية مختلفة موجودة في كل المجتمعات والتي تشتمل على مجالات دينية مثل التضرع والابتهالات من أجل العلاج، او فكرة أن الأثم والخطيئة يسببان المرض، ومجالات أخرى مادية ومحسوسة مثل تناول إفطار ساخن لمقاومة برد الشتاء، أو استعمال أعشاب معينة لمعالجة بعض الأمراض[١٨].وحينما تسيطر الأفكار الدينية والثقافية على صياغة المفاهيم المتعلقة بالصحة والمرض، فإن ذلك يعد بمثابة عوامل محفزة لاستعمال الطب الشعبي، فنرى مثلاً ان الأمريكيين الأفارقة ينظرون الى المرض بمسميات دينية أو فوق طبيعية، مثل أعراض السحر، بينما يرى الآسيويون من جنوب شرق آسيا ان المرض نصيب طبيعي من المعاناة المكتوبة على الإنسان[١٩].

يكتسب الطب الشعبي أهميته أيضا بوصفه أحد أشكال الطب البديل **(Alternative Medicine)**التي يشترك معها في العديد من السمات والخصائص التي تميزه عن الطب الحديث فهو يمارس منذ زمن بعيد مثل الطب التقليدي، وينظر الطب الشعبي إلى الجسم الإنساني ككل متكامل ليشمل الأبعاد الروحية والاجتماعية والعقلية والجسمية مثل الطب الكلي، وهو وثيق الصلة بحياة وثقافات جماعات معينة من الناس مثل الطب العرفي، وقد تعتمد أساليبه أيضاً على قوانين الطبيعة والمادة الطبيعية مثل الطب الطبيعي، وعلى الرغم من انه قد يكون لكل من هذه الأشكال الطبية سماتها وخصائصها الخاصة بها فهي تشترك مع الطب الشعبي في هذه الصفات البارزة التي تميزه عن الطب الحديث وتتلخص هذه السمات في:- [٢٠].

١- تشترك هذه النظم في ان مفهوم الصحة بالنسبة للفرد هو السعادة في كل الجوانب الروحية والاجتماعية والعقلية والجسمية، بينما يتعامل الطب الحديث مع الجسم البشري كحالة، بمعنى ان تركيزه يقع على النواحي الفيزيقية من الحياة.

٢- يؤكد نظام الطب الشعبي في المحافظة على الصحة، وبإتباع أنماط حياة صحية، بمعنى انها تؤكد على اتباع نظام تغذية مناسبة وممارسة التدريبات الرياضية، وإقامة العلاقات الإنسانية والسلوكيات الإيجابية والبيئية النظيفة، وعلى القيم الروحية والأخلاقية.

٣- يعمل الطب الشعبي على تجنيب الجسم الإنساني تناول العقاقير الفعالة والصعبة، ومعاناة التشخيص والتدخل الجراحي غير الضروري حيث يعتمد على نباتات طبية تزرع في نفس البلد الذي يمارس فيه.

٤- ليس هناك ثمة أضراراً جانبية من ممارسة الطب الشعبي أو نظم الطب البديل.
٥- تقدم نظم الطب الشعبي بدائل وإجابات معقولة لمعظم الأمراض التي ليس لها إجابات في العلاج الطبي الحديث مثل أمراض التفسخ، وأمراض العظام والمفاصل وكذلك الأمراض النفسية، وبخاصة حينما يكون هناك دور هام للعوامل الروحية والوجدانية والسلوكية في العلاج.
٦- هناك حقيقة معروفة عند كل الأطباء ان الإيمان والثقة غالبا ما تعالج المرض حينما يعجز الطب الحديث عن تقديم العلاج، ولذلك ينصرف أكثر الناس عن الطب الحديث ويلجأون لأشكال طبية أخرى لها ثقة وإيمان في قلوبهم وابتهالات على شفاههم بحيث يكون لنظم الطب الشعبي قوة السحر الذي يحرك الجبال.

يتضح ان الاهتمام بدراسة الطب الشعبي ليس مجرد قضية علمية تستحق العناية ولكنها أيضاً قضية مجتمعية تستحق التوقف عندها، ولفت النظر اليها، وقد اثبتت الدراسات الحديثة في الطب الشعبي ان الصراع بينه وبين الطب الحديث، وعلى وجه الخصوص في المناطق الريفية هو صراع متصل ولم يتوقف على الرغم من كل المنجزات العلمية التي يحققها الطب الحديث(٢١).
توجد مشتركات علاجية بين الطب الشعبي والطب الحديث، فهناك أعشاب متشابهة لتلك الأعشاب الطبية تستخدم عقاقيراً في الطب العلمي الحديث وهناك محاولات نشيطة لدمج الطب الصيني التقليدي مع الممارسات الطبية العلمية الحديثة، فهناك عدداً من الأدوية الشعبية التي كانت تستخدم في الماضي، ويجري تصنيفها حالياً كمستحضرات دوائية نباتية، ويتم وصفها بمعرفة الأطباء(٢٢).
فالطب الشعبي نظامٌ علاجيٌ يهدف إلى الوقاية من المرض ومعالجته مثله في ذلك مثل الطب العلمي الحديث غير ان لكل منها نظرياته الخاصة حول سببية المرض ووسائله الخاصة في التعامل معه سواء من حيث الوقاية أم العلاج، فالطب العلمي الحديث ينظر إلى المرض على انه نتيجة لبعض الأسباب الفسيولوجية- الباثولوجية كأن تكون لأسباب ذاتية داخل الشخص المريض أو بفعل عوامل خارجية مثل الجراثيم والميكروبات أو بعض العوامل البيئية السامة الموجودة في الطبيعة، بينما الطب الشعبي يرجع أسباب المرض إلى أسباب طبيعية وأخرى فوق الطبيعية وهي الأسباب التي تعزى في معظم الثقافات البشرية إلى العقاب الإلهي أو الشعوذة أو الأرواح الشريرة وأرواح الأسلاف(٢٣).

لقد أشارت بعض الدراسات الى المنظور الثقافي المقارن من زاوية الاتجاهات التصورية للمرض لدى الشعوب، والهدف هو التعرف على المعتقدات الطبية للجماعة، وكيف انها ترتبط بالدلائل الدينية والأخلاقية، أي ان المعتقدات عن المرض تفحص في حدود الفروض الثقافية وسلوكيات الجماعة وهي تختلف كلية عن النظرة الطبية البيولوجية الغربية للمرض والرعاية الصحية[٢٤].فالطب الذي يمارسه الأطباء الفيزيقيون المدربون، يطلق عليه الطب البيولوجي العالمي(**Cosmo Politan**)كوزموبوليتان، بينما يعرف الطب الشعبي بأسم الجماعة التي تمارسه[٢٥].

وعند التدقيق في الأمر نرى ان الطب الشعبي بانواعه ينظر الى جسم الإنسان(**Human body**)على أنه وحدة متفاعلة لامجال للفصل بين أي عضو من اعضائه، لكن الواقع المشاهد اليوم يؤكد لنا ان الطب الحديث يفصل بين أعضاء الجسم من خلال كثرة تخصصاته إذ أصبح لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان طبيباً خاصاً يعالج فقط العضو المتضرر، وهذا بسبب التطور في مجال الطب ووسائل التشخيص، حتى باتت أكثر تعقيداً، ومقابل ذلك ضعف في الجانب الإنساني، فلم يعد هدف معظم الأطباء الاهتمام بالمريض(**Patient**)قدر اهتمامهم بالمرض(**Disease**) [٢٦].

المبحث الرابع:مستقبل الطب الشعبي

أعتقد البعض من المهتمين بمجالات الطب والثقافة الصحية، وغيرهم من الشرائح الاجتماعية أن الطب الشعبي(**Folk Medicine**)سيواجه الانقراض أو الانحسار وذلك بسبب التقدم المذهل في التقانات الطبية الحديثة، والتطور الهائل الذي حدث في الطب العلمي، غير ان الواقع أثبت أن هذه الفكرة باتت خاطئة، فأزداد الاهتمام ببدائل الطب الحديث وازداد الانتشار الكبير لثقافة الطب البديل الذي بدأ يستحوذ على الاهتمام العام، والاهتمام الطبي، ففي التسعينات من القرن العشرين أصبح هناك اعتراف عام بأن الطب البديل(**Alternative Medicine**) أضحى منافساً شديداً للطب الرسمي، وازداد انتشار الطب الشعبي ولم ينقرض بتطور الطب الحديث[٢٧].

ان ظهور الطب البديل وازدياده المطرد على الرغم من المعاندين له والمستغلين، فإن له دلالة واضحة على انه يندرج ضمن دورات العلم التي يحتاجها العالم والمجتمع الإنساني مع مرور الزمن، فهذه دورة طبيعية للتطور الإنساني على مر العصور، ولامبرر لمهاجمته من قبل البعض واتهامه جزافاً بتهم هو بريء منها، بل ينبغي التعامل معه من منطلق مصلحة المريض الذي لاينام الليل ولا يهنأ بالنهار، ويتداوى من طبيب إلى طبيب، ومن مستشفى إلى

أخرى رغبة في العافية دون جدوى، فلا نحرمه طرقاً أخرى من العلاج قد يكون له فيها الشفاء والراحة والسعادة، فيعود فرداً منتجاً ناجحاً في مجتمعه(٢٨).

على الرغم من التقدم الحضاري والتقاني الذي نعيشه هذه الأيام فإننا لانزال نواجه في المجال الصحي مشاكل لاحصر لها، فكأنما هذا التقدم الحضاري المتمثل في العديد من المستشفيات الحديثة المجهزة بأحدث الوسائل يقابله تخلف معرفي من ناحية الوقاية من الأمراض وتجنب حدوثها بقدر الإمكان، يضاف إلى ذلك الآثار الجانبية السلبية لكثير من الأدوية على صحة الإنسان(٢٩).

وهكذا بدأ الناس في البحث عن أساليب علاجية طبيعية جديدة ليست لها هذه الآثار الجانبية الخطيرة، فلم يعد هناك بدُ من الرجوع الى الطب البديل لما يتميز به هذا الطب من مزايا عديدة تجعله في كثير من الأحيان البديل الأسلم لكثير من العلاجات الكيمياوية، وهروباً من مافيا شركات الأدوية التي لايهمها سوى الربح(٢٨).

يحمل التطبيب الشعبي عناصر إيجابية تفيد في إستخلاص المنطلقات المعاصرة من الطب الحديث، وخاصة بإيجاده اللغة الطبية الاجتماعية المشتركة بين الطبيب والمريض.

ان المفاهيم العلمية لغة مشتركة بين المختصين في مجال الطب، وتلك مسألة هامة في البحوث والدراسات التطبيقية، أما في مستوى العلاقة بين المريض والطبيب فان اللغة مزيج من الطب والعقاقير الشائعة، فآلام المعدة مختلطة بمجال الصدر والأمعاء وكل آلامها مشار إليه بكلمة(المغص).

فالتطبيب الشعبي كما يفهم من زاويته الايجابية مرتبط باستخلاص خبرات الإنسان المستمدة من تفاعله مع البيئة، والتي تثبت إيجابياتها عبر العصور في التطبيب العلاجي، فكثير من الأعشاب المحلية تشكل علاجاً شافياً لبعض الأمراض مع وجود عناصر أخرى في نطاق الوقاية الصحية، إذ تبرز الكثير من الأمثال التي توضح حقيقة الفكر الاجتماعي في هذا المجال، فالمثل الشائع(درهم وقاية خير من قنطار علاج)كان يعني ضمناً التزام إجراءات وتدابير تعود على سلوك الإنسان اليومي في جوانب شتى لتحميه من التعرض للإصابات المرضية والاهتمام بالنظافة الشخصية أو العامة، أو نظافة المأكل والمشرب، ومايزال هذا المثل على الرغم من تطور معناه وشموله لمضامين جديدة، يشكل أساساً هاماً وراسخاً في مفاهيم وممارسات الطب الحديث وعلومه المختلفة(٣٠).

وعند تحول الطب في العالم الغربي الى تجارة على ايدي شركات الأدوية والأجهزة الطبية التي من المنطق الرأسمالي الذي يحكم اقتصاديات العالم حولت حاجة المريض للعلاج إلى سلعة يمكن أن تحقق الأرباح الطائلة بصرف النظر عن البعد الانساني، وعندما يقارن هذا الجانب بالطب البديل نرى ان الوسائل التي استخدمها الطب البديل في العلاج والتي تزيد من قدرات الجسم الطبيعي على الشفاء أرخص بكثير من تدخلات الطب التكنولوجي المكثف، كما انها اكثر أماناً وفاعلية بمرور الوقت لما يتسم به الطب البديل من انه يعطي أسلوب حياة وقائي، أي يمنع المرض قبل حدوثه بتقوية مناعة الجسم، أما الطب الحديث فيعالج المرض بعد حدوثه، وكما هو معروف(الوقاية خير من العلاج) (٣١).

ان سبب محاربة الطب الحديث للطب البديل هو ان الوسط الطبي والحديث لايعلم عن الطب البديل الا معلومات بسيطة وأحكام مسبقة، ولا يريد حتى التأكد من صحة المعلومات التي تصله عن الطب البديل، علماً ان الغالبية الساحقة من المرضى الذين لجأو الى الطب البديل لم يلجأوا اليه الا بعد اليأس من الطب الحديث(٣٢).

هناك من يرى ان الطب البديل هو طب المستقبل وهناك من يرى انه ليس طباً، و بالتالي لايصلح ان يكون بديلاً وان المسألة لاتعدو كونها خلطاً للأوراق وتسمية الأشياء بغير مسمياتها.

ان الطب البديل سواء أكان على المستوى المحلي ام العالمي يحتاج إلى وقفة ليوضح ان حجم سوق الطب البديل على مستوى العالم يقدر بنحو (٦)مليار دولار، الأمر الذي دفع منظمة الصحة العالمية(**WHO**)الى تبني ستراتيجية خاصة للنهوض به(٣٣).

الاستنتاجات

١- ان الطب الشعبي **(Folk Medicine)**عبارة عن مجموعة طرق وأنظمة علاج قديمة متوارثة لدى الشعوب منذ آلاف السنين، وأفكاره موجودة في كل المجتمعات وشتى الثقافات.

٢- أشارت منظمة الصحة العالمية **(WHO)**إلى أن ٦٥%-٨٠% من سكان العالم يعتمدون على الطب الشعبي كشكل أساسي للرعاية الصحية.

٣- بينت دراسة أنثروبولوجية عن الطب الشعبي في الريف العربي أن الطب الشعبي جزء من المعارف الشعبية التي تكونت عبر أزمنة طويلة وأستمر ارتباطها لظروف اجتماعية، وهو نوع من التداوي يقوم به محترفين وغير محترفين يستخدمون النباتات وبعض أجزاء من الحيوانات والدهانات.

٤- ان الاهتمام بدراسة الطب الشعبي ليس مجرد قضية علمية تستحق العناية بها، ولكنها أيضاً قضية مجتمعية تستحق التوقف عندها، ولفت النظر إليها.
٥- توجد مشتركات علاجية بين الطب الشعبي والطب الحديث، فهناك أعشاب متشابهة تستخدم كعقاقير في الطب العلمي الحديث.
٦- الطب الشعبي نظام علاجي يهدف إلى الوقاية من المرض ومعالجته مثله في ذلك مثل الطب العلمي الحديث غير ان لكل منهما نظرياته الخاصة حول سببية المرض، ووسائله الخاصة في التعامل معه سواء من حيث الوقاية أم العلاج، فالطب العلمي الحديث ينظر إلى المرض على انه نتيجة لبعض الأسباب الفسيولوجية- الباثولوجية كأن تكون لأسباب ذاتية داخل الشخص المريض، أو بفعل عوامل خارجية مثل الجراثيم، والميكروبات أو بعض العوامل البيئية السامة الموجودة في الطبيعة، بينما الطب الشعبي يرجع أسباب المرض إلى أسباب طبيعية وأخرى فوق الطبيعية وهي الأسباب التي تعزى في معظم الثقافات البشرية إلى العقاب الإلهي أو الشعوذة أو الأرواح الشريرة.
٧- ينظر الطب الشعبي بأنواعه إلى جسم الإنسان **(Human body)** على أنه وحدة متفاعلة لامجال للفصل بين أي عضو من أعضائه، لكن الطب العلمي الحديث يفصل بين أعضاء الجسم من خلال كثرة تخصصاته إذ أصبح لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان طبيباً خاصاً يعالج فقط العضو المتضرر، وهذا بسبب التطور في مجال الطب ووسائل التشخيص، فلم يعد هدف الأطباء الاهتمام بالمريض "**Patient**" قدر إهتمامهم بالمرض "**Disease**".
٨- هناك من يرى ان الطب الشعبي **(Folk Medicine)** هو طب المستقبل وان حجم سوق الطب الشعبي عالمياً يقدر بنحو "٦ " مليار دولار الأمر الذي دفع منظمة الصحة العالمية **(WHO)** إلى تبني ستراتيجية خاصة للنهوض به، بينما هناك من يرى انه ليس طباً وبالتالي لايصلح ان يكون بديلاً.
٩- سلط البحث الضوء على الطب الشعبي والطب العلمي، والمسافات التي تفصل بينهما، وهل ان للطب الشعبي مستقبلاً ؟ وهل سيشهد تقدماً وإقبالاً ؟ أم هو طفرة وسيتراجع أمام التقدم العلمي والطبي.

الهوامش:

١- اليس اسكندر بشاي، الاتجاهات الحديثة في دراسة الطب الشعبي التقليدي، من كتاب علم الاجتماع الطبي، تأليف محمد الجوهري وآخرون، ط١، دار المسيرة، عمان ٢٠٠٨، ص٧٧.
٢- المصدر نفسه، ص٧٨.
٣- اليس اسكندر، مصدر سابق ص٧٧.
٤- المصدر نفسه، ص٧٨-٧٩.
٥- محمد الجوهري وآخرون، علم الاجتماع الطبي، مصدر سابق ص٧٩-٨١.

٦- نجلاء عاطف خليل، في علم الاجتماع الطبي، ثقافة الصحة والمرض، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٢٦٢.
٧- مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، دراسات في علم الاجتماع والانثروبولوجيا، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط١، ١٩٧٥، ص٣٧٩.
٨- نجلاء عاطف، مصدر سابق، ص٢٦٦.
٩- مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، دراسات في علم الاجتماع والانثروبولوجيا، مصدر سابق، ص ٣٧٩-٣٨١.
١٠- نجلاء عاطف خليل، مصدر سابق، ص٢٦٧.
١١- المصدر نفسه ص٢٦٨-٢٦٩.
١٢- ابراهيم يوسف المشني، علم الاجتماع الطبي، دار المستقبل للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٠، ص٨٢.
١٣- عبد الرزاق صالح محمود، الطب الشعبي من منظور أطباء الطب الحديث، بحث منشور في مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، ٢٠١٠.
١٤- نجلاء عاطف خليل، مصدر سابق، ص٢٦٠-٢٦٣.
١٥- المصدر نفسه، ص٢٥٦-٢٥٧.
١٦- المصدر نفسه، ص٢٥٨-٢٥٩.
١٧- محمد الجوهري وآخرون، علم الاجتماع الطبي، مصدر سابق، ٢٠٠٨، ص٨١.
١٨- نجلاء عاطف خليل، مصدر سابق، ص٢٧١.
١٩- المصدر نفسه، ص٢٧٠.
٢٠- المصدر نفسه، ص٢٧١.
٢١- المصدر نفسه، ص٢٧٨-٢٨٠.
٢٢- المصدر نفسه، ص٢٨٥-٢٨٦.
٢٣- المصدر نفسه، ص٢٨٧.
٢٤- محمد الجوهري وآخرون، علم الاجتماع الطبي، مصدر سابق، ٢٠٠٨، ص.
٢٥- المصدر نفسه، ص٩٦-٩٧.
٢٦- الطب البديل، أمل الملايين، اخوان أون لاين، ٢٠١٠ .
٢٧- نجلاء عاطف خليل، مصدر سابق، ص٢٨٠.
٢٨- الفرق بين الطب التقليدي والطب البديل، اخوان اون لاين، ٢٠١٠.
٢٩- محمد صفوح الأخرس، الانثروبولوجيا وتنمية المجتمعات المحلية، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠١، ص١١٨-١١٩.
٣٠- الفرق بين الطب التقليدي والطب البديل، مصدر سابق، ٢٠١٠.
٣١- المصدر نفسه، ٢٠١٠.
٣٢- واقع الطب البديل على مستوى العالم، اخوان اون لاين، ٢٠١٠
٣٣- شاكر مصطفى سليم، قاموس الانثروبولوجيا، الكويت، ط١، ١٩٨١، ص٦١٧.